# الفصل الرابع

# النظريات المفسرة للأوتيزم

- مقدمة .
- نظرية التحليل النفسي .
- النظرية السلوكية .
- نظرية العقل .
- نظرية التماسك ( الترابط ) المحوري الضعيف .
- نظرية التوظيف الإجرائي ( التنفيذي ) الناقص .
- النظرية الإدراكية الحسية .
- نظرية الذات الخبيرة .
- نظرية المرآة المكسورة للأوتيزم .

## الفصل الرابع
## النظريات المفسرة للأوتيزم

- **مقدمة**: Introduction

لقد أسهمت الدراسات النفسية والسلوكية التي أجريت في مجال الأوتيزم سواء النظرية منها أو التجريبية في تحقيق نتائج مذهلة تمخض عنها العديد من المراكز التأهيلية غير الطبية التي حققت نتائج مع هؤلاء الأطفال والمنتشرة في جميع دول العالم، وبالطبع كان توجه هذه المراكز قائم على نظريات علمية نفسية وبالتالي كانت النتائج متحققة بناءً على هذه النظريات، وسوف نستعرض هنا بعض هذه النظريات التي حاولت تفسير الأوتيزم ليكون منطلقاً هاماً لتحديد الإجراءات التي يمكن إتباعها لتحسين حالة هؤلاء الأطفال .

وسوف يقوم المؤلف هنا بتناول الأوتيزم من خلال عدة نظريات هي على النحو التالي:

- نظرية التحليل النفسي .
- النظرية السلوكية .
- نظرية العقل .
- نظرية التماسك ( الترابط ) المحوري الضعيف .
- نظرية التوظيف الإجرائي ( التنفيذي ) الناقص .
- النظرية الادراكية الحسية .
- نظرية الذات الخبيرة .
- نظرية المرآة المكسورة للأوتيزم .

وفيما يلي عرض موجز لتناول هذه النظريات لاضطراب الأوتيزم.

- **نظرية التحليل النفسي** : psychological Analysis Theory

يعتبر فرويد (١٨٦٥-١٩٣٩) رائداً لمدرسة التحليل النفسي، وقد نشأ التحليل النفسي ضمن أطر الطب النفسي، فكان منهاجاً متميزاً في علاج العصابين ولكنه سرعان ما أصبح سيكولوجية شاملة عن الإنسان، فلقد قام التحليل بدراسة العناصر الطبيعية للكائن البشري من ناحية والكشف عن ميول الإنسان النفسية وعالمه الداخلي ومغزى السلوك البشرى من ناحية أخرى.

وتعد نظرية التحليل النفسي من أقدم النظريات التي حاول البعض استخدامها في تفسير الأوتيزم، خاصة حينما وصف "برونو بيتيلهيم" Bruno Bettleheim (١٩٦٠) أم طفل الأوتيزم بالثلاجة، بل وحملها مسؤولية إصابة طفلها بتلك الأعراض، وفسر ذلك بأن طفل

الأوتيزم كان في الأصل طفلاً ذكياً لكنه انسحب عن العالم بما فيه من تواصل وتفاعل اجتماعي نتيجة أحداث صادمة في بيئته، وخاصة تلك الأحداث المتعلقة بمواقف الدفء العاطفي سواء من الأم أو الأب أو من كليهما. حيث أشار أيمن جيره (١٩٨٤) إن فشل " أنا " الطفل في تكوين إدراكه نحو الأم والتي تكون في ذلك الوقت بمثابة الممثل الأول لعالمه الخارجي هو سبب الإصابة بالأوتيزم، فطفل الأوتيزم لم تسنح له الفرصة لتوجيه أو تركيز طاقته النفسية نحو موضوع أو شخص آخر منفصل عنه .

ووصف جولدستين و آخرون .Goldstein et al (١٩٨٦) أباء وأمهات أطفال الأوتيزم بالتبلد الانفعالي والبرود العاطفي ، كما أكد على أنهم من النوع ذوي الرغبة العالية في الاستحواذ والتملك، يحبون ويفضلون العزوف عن الآخرين، هم أكثر قلقاً وتوتراً، هم أباء عاشوا فترات صعبة وحرجة في طفولتهم عانوا فيها كثيراً من البرود العاطفي الأبوي. وأكد كانر Kanner (١٩٤٣) واتفق معه أرونس وجيتنس Aarons & Gittens (١٩٩٢) بأن الأوتيزم هو نتيجة إصابة شديدة ومبكرة في المراحل السوية لتكوين الأنا، فالأوتيزم ما هو إلا نتيجة حتمية لمناخ وجداني انفعالي مرضي، هو نتيجة خبرات مبكرة غير مشبعة بل وتهديدية .

وأكدت سامية القطان (١٩٧٩) على أن الطاقة النفسية التي يولد بها الفرد يضيع بعضها في صورة مكبوتات ويضيع بعضها الآخر في صورة دفاعات، وتكون الطاقة المتبقية تحت تصرف الجانب الشعوري وقبل الشعوري من الأنا معيارا لقوة هذه الأنا. ولذالك ظل العديد من الباحثين محاولين فك لغز الإصابة بالأوتيزم بالاعتماد على هذه المفاهيم النفسية المتمثلة في قوة الأنا وقوة طاقتها النفسية، فيرون أن ضعف الأنا يسحب الطفل عن عالم الواقع ليغرق في عالم الخيالات التائه مستشهدين برؤية " برونو بيتيلهيم "Bruno Bettleheim" (١٩٦٠) حينما رأى أن الأوتيزم ما هو إلا انعكاس لتلك الحالة الفظة التي يعيشها الطفل مع أمه والمتمثلة في حرمانه من الحب والحنو فيغرق في تخيلاته هروبا من يأسها واحباطاتها محاولا إشباع ما كان يصبو إليه.

وأكد رشاد موسى (٢٠٠٢) على أن أسباب الإصابة بالأوتيزم يراها البعض بأنها ترجع الى أساليب التنشئة الوالدية الخاطئة والى شخصية الوالدين غير السوية وأسلوب التربية الذي يسهم في حدوث الاضطراب، كما وجد أن أباء الأطفال المصابين بالأوتيزم يتسمون بالبرود الانفعالي والوسواسية والعزوف عن الآخرين والذكاء والميل الى النمطية ومن ثم ونتيجة لهذا الجمود العاطفي والانفعالي في شخصية الوالدين والمناخ الأسري عامة يؤدي الى عدم تمتع الطفل بالاستثارة اللازمة من خلال العلاقات الداخلية في الأسرة .

وذكر محمد شوقي (٢٠٠٥) أن " كانر " رأى أن العزلة الاجتماعية وعدم الاكتراث بالطفل هما الأساس في المشكلة التي قادت الى كل التصرفات الأخرى غير الطبيعية، فجميع آباء الأطفال الذين تم تشخيصهم على أنهم أطفال مصابين بالأوتيزم كانوا من ذوي التحصيل العلمي العالي، لكنهم كانو غريبي التصرف مفرطي الذكاء والإدراك الذهني صارمين منعزلين جديين يكرسون أوقاتهم لمهنهم ولأعمالهم أكثر منها لعائلاتهم . ولذلك أكد أوجورمان Ogorman (١٩٧٠) على أن العديد من الباحثين الأوائل في مجال الأوتيزم اعتمدوا بشكل كبير على مبادىء نظرية التحليل النفسي في تحسين حالة أطفال الأوتيزم، وكان ذلك يتم من خلال عزل الطفل عن منزله وأفراد أسرته وإدخاله في إحدى المراكز الخاصة بالرعاية والتأهيل ذات الإقامة الكاملة، حيث يتم تقديم العلاج النفسي الكامل للطفل ثم يتم إعادته تدريجياً إلى أسرته، وظل هذا العلاج مستخدماً لفترة بسيطة حتى تضاءلت فرصه بسبب تبدد وجهة النظر التي رأت أن الأوتيزم ذو منشأ انفعالي .

وأشار نيلسون وإسرائيل Nelson & Israel (١٩٩١) إلى أن العلاج النفسي التقليدي كان يستخدم مع الأطفال الأوتيزم بحيث كان يتم التركيز على العمليات البين نفسية كالتطور الطبيعي للانفصال عن الوالدين ونمو الأنا .

وذكرت سهام عليوه (١٩٩٩) أن هناك العديد من الباحثين في مجال الأوتيزم اعتمدوا على مبادىء نظرية التحليل النفسي كمحاولة علاجية لتحسين حالة هؤلاء الأطفال المصابين بالأوتيزم، حيث اعتبر هؤلاء الباحثون الأوتيزم اضطراب انفعالي ناشىء من رفض الوالدين إقامة علاقة مع هذا الطفل وبرودة مشاعرهما. وأشارت هدى أمين (١٩٩٩) على أن العلاج النفسي يستخدم مع الأطفال الأوتيزم بجانب العلاج البيئي، وذلك يرجع إلى أن الإصابة بالأوتيزم نتيجة إلى الفشل الوالدي والذي يتضمن رفض أو نقص التفاعل المتبادل مع الطفل .

وأكد بوجداشينا Bogdashina (٢٠٠٥) على أن العلاج النفسي كان ومازال يستخدم في علاج حالات الأوتيزم، خاصة أن مستخدمي هذا العلاج يؤمنون بأن الأم هي السبب الرئيس في الإصابة بالأوتيزم، وكان وصف الأم بالثلاجة refrigerator في علاقتها بطفلها الأوتيستي مبرراً لهؤلاء المتمسكون بالعلاج النفسي مع الأوتيزم، ومع ذلك فالدلائل البحثية تؤكد أن فرص العلاج النفسي للأوتيزم بدأت تتضاءل بدرجة كبيرة وأصبح المتسمكون به كعلاج للأوتيزم قلة من الباحثين والمتخصصين. ومن الجدير بالذكر هنا أن استخدام العلاج النفسي أو مبادىء نظرية التحليل النفسي في التدخل مع الأطفال الأوتيزم بغرض تحسين حالتهم يتمثل في كيفية إيجاد وسط بيئي يشجع الطفل على عملية الاستقلال الذاتي ويمهد له الطريق لتكوين علاقات

انفعالية سوية مع الآخرين . وعلى الرغم من هذه المحاولات التي تبنت وجهة نظر التحليل النفسي في تفسير وعلاج الأوتيزم إلا أنه يمكن القول بأن هذه المحاولات لم تعطي تفسيراً شاملاً وكاملاً للأوتيزم، إنما غطت بعض الجوانب وألقت الضوء عليها، فلا شك أن هناك خللاً ما في شخصية أطفال الأوتيزم، وإقحام مبادىء نظرية التحليل النفسي في تفسيرها هو أمر يعد من الينبغيات، إلا أن هذا أيضاً لا يعطي صورة واضحة كاملة للأوتيزم .

- **المنظور السلوكي للأوتيزم**: The Behavioral Perspective on Autism

تؤمن النظريات السلوكية بأن المعرفة المتعمقة الدقيقة الصادقة تنبع من خلال التجربة والتطبيق، فالفهم الدقيق العلمي للسلوك الإنساني لا يتم حقيقة إلا من خلال دراسته في بيئة تجريبية محكمة الضبط، حيث يتم فيه ربط السلوك بالعوامل البيئية المحيطة به. ولا استجابة بدون مثير هو مبدأ ومسلمة أساسية في المدارس السلوكية، فالتعلم عندهم يحدث نتيجة لحدوث ارتباط بين المثير والاستجابة بحيث إذا ظهر هذا المثير مرة أخرى فإن الاستجابة التي ارتبطت به سوف تظهر هي الأخرى .

إن كلمة أوتيزم Autism كما أشار ديبادت Debbaudt (٢٠٠٢) كلمة مركبة acronym يدل كل حرف فيها على معنى ومدخل لفهم اضطراب الأوتيستك، ومن هنا فالمصطلح في حد ذاته لا يفيد في تفسير هذا الاضطراب، انه على الأرجح مسمى وصفي يلخص كيفية تصرف هؤلاء الأطفال الذين يظهرون خصائص سلوكية معينة. ولذلك فإن تفسير الأوتيزم وفقاً للمدرسة السلوكية يبنى على نقطتين رئيسيتين: الأولى هي تحديد السلوكيات التي يظهرها هؤلاء الأطفال تحديداً دقيقاً، أما الثانية فهي معرفة العلاقة الوظيفية لهذه السلوكيات بالبيئة المحيطة .

وفي ذلك اتفق كل من كونCone (١٩٩٧) و سشريمان Schreibman (٢٠٠٠) على أن أطفال الأوتيزم قد يظهرون سلوكيات بكثرة كبيرة تسمى زيادات ( إفراطات ) سلوكية، وأحياناً أخرى يظهرون سلوكيات محددة بشكل نادر الحدوث تسمى نواقص ( عيوب ) سلوكية، وبالتالي فإن التفسير السلوكي للأوتيزم يدلنا إلى أن الأوتيزم ما هو إلا تكوين مركب من نواقص وزيادات سلوكية، تتمثل النواقص في العيوب الاجتماعية واللغوية وعيوب الانتباه. أما الزيادات فتتمثل في السلوكيات النمطية، إثارة الذات،...الخ، وتفسير هذه السلوكيات لا يتم إلا في ضوء تحديد المثيرات التي تسبقها والوقوف على طبيعتها الوظيفية، وهذا لا يتم إلا من خلال النظر للأوتيزم من خلال ما يعرف بالتوافق ثلاثي الأطراف ABC( المقدمات–السلوكيات–النتائج)، فالمقدمات

أو السوابق هي تلك الأحداث البيئية المحيطة التي تسبق السلوك الأوتيستي، والنتائج هي مردود هذه السلوكيات على ذات الطفل، ومن هنا فالأوتيزم في وجهة نظر السلوكيين ما هو إلا ارتباط لعدد من السلوكيات المحددة بمثيرات معينة يستلزم للحد منها ما يعرف بضبط السلوك.

- **نظرية العقل**: Theory of Mind

إن القدرة على توقع ردود فعل الآخرين من حولنا ورغباتهم وفهم مشاعرهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم وما يدور في وجدانهم يسهم بدرجة كبيرة في الإتيان بتفاعل اجتماعي ايجابي معهم سواء كان هذا التفاعل لفظياً أو غير لفظياً، كما تيسر هذه القدرة على عملية تبادل الأفكار والمشاعر مع الآخرين، وعلى النقيض من ذلك فافتقاد هذه القدرة أو قصورها ولو بدرجة بسيطة يؤثر على توقع وفهم مواقف الآخرين سواء تلك التي يظهرونها لنا أن يضمرونها في نفوسهم، ويكون نتيجة ذلك عجز في عملية التواصل والتفاعل الايجابي معهم. وتاريخياً، تعود تلك النظريات التي تبحث في العقل من حيث مكوناته وكيفية عمله إلى عهد أفلاطون و أرسطو وغيرهما من الفلاسفة الإغريق، وكانت آنذاك تركز على علاقة العقل بالروح فكانت ترى أن التفكير والذاكرة هما مكونات العقل أما الحب والفرح والحزن فهي بدائيات لا تكون العقل، أما الآن فقد أصبح العقل ظاهرة تتعلق بعلم النفس وغالباً أصبح مصطلح العقل يستخدم كمصطلح رديف للوعي .

وأكد سكوت وآخرون . Scott et al (٢٠٠٠) على أن نظرية العقل إحدى النظريات التي لاقت انتشاراً واهتماماً كبيراً في الآونة الأخيرة ويرجع ذلك إلى دورها في تفسير صعوبات التواصل الاجتماعي لدى أطفال الأوتيزم. وذكر بارون- كوهين Baron-Cohen (١٩٩١) أن العديد من الباحثين لاحظوا من خلال دراساتهم أن أطفال الأوتيزم يجدون من الصعوبة إدراك وتصور الحالات الذهنية للآخرين من حولهم، و لذلك ركزت العديد من تفسيرات الأوتيزم على معرفة الأسباب الكامنة وراء النواقص الجوهرية في التواصل الاجتماعي لدى هؤلاء الأطفال، ولذلك أكد أنصار تفسير الأوتيزم طبقاً لنظرية العقل أن العجز الذي يظهره هؤلاء الأطفال في الجوانب الاجتماعية التواصلية والوجدانية إنما هو نتيجة عجز في نسب الحالات الذهنية لهم وللآخرين .

واقترح بارون- كوهين Baron-Cohen (١٩٩٥) فكرة مؤداها أن السمة المحورية لأطفال الأوتيزم هي عدم القدرة ( العجز ) على استنباط الحالات النفسية للشخص الأخر، وفي الحالات الشديدة ربما لا يكون لدى طفل الأوتيزم مفهوم العقل على الإطلاق، وهذا العجز يسمى نقص نظرية العقل أو " عمى العقل ". إن إقحام نظرية العقل في تفسير تلك السلوكيات التي يبديها

أطفال الأوتيزم يؤدي إلى افتراض أن أطفال الأوتيزم على سبيل المثال لا يشتركون في الجوانب الاجتماعية والوجدانية مع الآخرين لأنهم يفشلون في تطوير تمثيلات معرفية للحالات الوجدانية لأنفسهم في المقام الأول وللآخرين بعد ذلك.

وذهب سبيتز وكروس Spits & Cross (١٩٩٣) الى إن أطفال الأوتيزم لديهم صعوبات في تكوين تمثيلات عقلية وذهنية لمعتقدات ورغبات الآخرين وهذا يتضح من خلال أدائهم السيئ في المهام التي تتطلب أداءاً معرفياً، إن العيب الرئيسي في الأوتيزم هو ضعف التوظيف التنفيذي أو الإجرائي، وهذا يتضح في عجز الأوتيستيين عن النجاح في المهام الاسترجاعية. وعلى الرغم من أن نظرية العقل يمكن أن تفسر بعض الإعاقات الاجتماعية لدى أطفال الأوتيزم إلا أنها لا تعطي نظرة شاملة تفسيرية له، إنها تغطى جانباً في الأوتيزم وهي محطة في الطريق الذي قد يوصل لفهم أعمق لأسباب الأوتيزم .

- **نظرية التماسك ( الترابط ) المحوري الضعيف** : Weak Central Coherence Theory

احتلت النظريات المعرفية في الآونة الأخيرة مكاناً بارزاً في أوساط البحث العلمي المتعلق بتفسير الأوتيزم، وإحدى هذه النظريات نظرية التماسك المحوري الضعيف (WCC) أو كما يطلق عليها البعض نظرية الترابط المحوري (CC) .

وقد ظهرت هذه النظرية على يدي " يوتا فريث" Uta Frith وهي أستاذة جامعية في University College London وكان ذلك تحديداً في عام ١٩٨٠، وهي نظرية تتناول الأساليب المعرفية المختلفة التي يتبعها الأفراد في معالجة البيانات .

اتفق فريت Frith (١٩٨٩) و فريث وآخرون .Frith et al (١٩٩٣) على أن نظرية التماسك المحوري الضعيف تركز على الفروق المعرفية سواء العيوب أو نقاط القوة في أطفال الأوتيزم، تقول فريث Frith : في النظام المعرفي الطبيعي يوجد استعداد أساسي لتكوين ترابط وتماسك في المعلومات على مدى واسع من المثيرات التي نتعرض لها في حياتنا بقدر المستطاع، وأيضاً التعميم على مدى واسع من السياقات بقدر المستطاع، إلا أن أطفال الأوتيزم يفتقرون إلى هذا التكوين للتماسك.

وبمقتضى هذه الرؤية، فإن الأوتيزم ناتج عن نواقص في القدرة على ربط المعلومات والبيانات والعمل على تكاملها ومعالجتها من خلال عمليات عقلية متقدمة، وهذا ما دفع العديد من الباحثين أمثال موترون و آخرون .Mottron et al (١٩٩٩)، ليكام ولوبيز Leekam &

Lopez (٢٠٠٣)، وموترون وآخرون .Mottron et al (٢٠٠٣) إلى افتراض أن أطفال الأوتيزم يعجزون عن رؤية الشيء في صورته الكلية، يعانون صعوبة بالغة في النظر إلى الأمور نظرة جشطالتية.

وطبقاً لمفهوم نظرية التماسك أو الترابط المحوري، يمكن القول أن هذه النظرية تفترض أن الأساليب المعرفية لمعالجة البيانات تقع على متصل له طرفين، الأول ضعيف والثاني قوي، وما بينهما عدة مستويات يقع فيها الأفراد، وأطفال الأوتيزم يقعون بالقرب من الطرف الضعيف لهذا المتصل .

- **نظرية التوظيف الإجرائي ( التنفيذي ) الناقص .** Deficient Executive Functioning

ذكر والش و بينينجتون Welsh & Pennington (١٩٨٨) أن مفهوم نظرية التوظيف الإجرائي هو قدرة الفرد على انتقاء العمليات العقلية المناسبة واستراتيجيات حل المشكلات لمواجهة موقف مشكل معين بغية الوصول لنتائج وأهداف مناسبة.

وقد حاول العديد من الباحثين في مجال الأوتيزم أمثال بليمونت Belmonte (١٩٩٧) و تارنر Turner (١٩٩٩) الوصول إلى تفسير منطقي لتلك الصلابة التي يظهرها أطفال الأوتيزم في طريقة التفكير، أو قل قلة المرونة بل وانعدامها، واعتمدوا في ذلك على مبادىء نظرية التوظيف الإجرائي، فتوصلوا إلى أن الأوتيزم ليس نتيجة لقلة الفهم ولا لقلة وضعف التفكير، إنما هو نتيجة لضعف القدرة على التنفيذ، فالقدرة المعطلة أو المعاقة على توليد أفكار جديدة والتخطيط العملي لها يؤدي إلى سلوكيات نمطية متكررة.

وعلى الرغم من أن تفسير الأوتيزم وفقاً لهذه النظرية يفتح الطريق لمعرفة أسباب قصور طفل الأوتيزم في القيام بالمهام المنوط بها على وجه كامل، حيث تفترض أن أطفال الأوتيزم غير قادرين على استخدام استراتيجية حل المشكلات في المواقف التي يواجهونها، إلا أن هذا القصور لا يقتصر على هؤلاء الأطفال فقط، فالعاديين قد يظهرون نماذج من هذا القصور، ولذلك فتفسير الأوتيزم طبقاً لنظرية التوظيف الإجرائي الضعيف أو الناقص لا يعطي إلا مدلولاً بسيطاً لإحدى جوانب القصور في أداء هؤلاء الأطفال .

- **النظرية الادراكية الحسية** : Sensory Perceptual Theory

ذكر بوجداشينا Bogdashina (٢٠٠٣) أن الأوتيزم هو نتيجة عطب في المخ والذي بدوره يؤثر على إحدى القنوات الحسية أو أكثر، والتي تجعل أطفال الأوتيزم يدركون العالم بشكل

مختلف، وهذا يقودنا إلى القول بأن أطفال الأوتيزم يعانون من مشكلات حسية تختلف عن العمى أو الصمم، فمشكلاتهم الحسية تتمثل في عدم قدرتهم على فلترة المعلومات، والإدراك المتفتت ( الجزئي ) والحساسية المفرطة تجاه بعض المثيرات. وعلى الرغم من أن النظرية التي تلقي الضوء على الشذوذ الإدراكي الحسي على أنه سمة جوهرية للأوتيزم لم يتم الاعتراف بها بشكل واسع وهذا ما تشير إليه الدراسات المتعددة في هذا المجال، إلا أنه يمكن القول أن هناك اهتمام متزايد في تناول هذه النظرية مع الأوتيزم.

- **نظرية الذات الخبيرة** : An experiencing self Theory

قام بول و جوردان Powell & Jordan (١٩٩٣) بتقديم الفكرة القائلة بأن صعوبة أطفال الأوتيزم في تكوين ما يعرف بـ " الذات الخبيرة " هي إحدى النواقص الجوهرية الأساسية في الأوتيزم، و من الجدير بالذكر أن هذه الفكرة نشأت كنتيجة لدراسة وتحديد أهم المشكلات التي يمر بها أطفال الأوتيزم في ما يعرف بـ " الذاكرة الشخصية " فأطفال الأوتيزم يستطيعون استرجاع الأحداث والأشياء التي تحدث للآخرين ولكنهم يجدون صعوبة بالغة في استدعاء حدث أو موقف أو خبرة مروا بها أو شاركوا فيها وذلك حينما لا يتوفر لديهم إشارات ورموز دالة تساعدهم على استدعائها .

- **نظرية المرآة المكسورة للأوتيزم** The Broken Mirror Theory of Autism .

اتفق جالز وجولدمان Gallese & Goldman (١٩٩٨) مع لاكوبوني Lacoboni (١٩٩٩) و ريزولاتي وكرايجهيرو Rizzolatti & Craighero (٢٠٠٤) على أن الأشخاص الأوتيستيين يعانون من صعوبة كبيرة في العديد من جوانب التفاعل الاجتماعي، وأن السبب الكامن وراء هذه الصعوبة مازال مجهولاً بنسبة معينة لحد الآن . وفي السنوات الأخيرة أدى اكتشاف ما يعرف بـ " نظام العصب العاكس " ويختصر بـ( MNS ) والموجود في المخ البشري والذي يتألف من مناطق تستجيب لأفعال الذات والآخرين إلى حدوث اهتمام متزايد بدراسة المخ البشري في الأوتيزم كمحاولة جادة للوصول إلى تفسير مقنع لربط الإعاقة الاجتماعية في الأوتيزم بخلل في المخ أو بخلل في نظام العصب العاكس. وفي ذلك أكد كل من ويليام وآخرون Williams et al. (٢٠٠١)،لاكوبوني ودابريتو Lacoboni & Dapretto (٢٠٠٦)، واوبيرمان وراماكندران Oberman & Ramachandran (٢٠٠٧) على أن الوظيفة الرئيسية لنظام العصب العاكس Mirror Neuron System هي تنظيم أداء العقل بالإضافة إلى تنظيم العمليات الاجتماعية والمعرفية والتي تشتمل بدورها على القدرة على التقليد ومحاكاة سلوك الآخرين، بالإضافة إلى التحكم في بعض الجوانب الانفعالية كالامباثية، أضف لذلك اللغة.

إن نظرية المرآة المكسورة في الأوتيزم ترجع جذورها كما أكد ديكيتي وآخرون Decety et al. (١٩٩٧) إلى نتائج تلك الدراسات التي اهتمت بدراسة سلوك التقليد والمحاكاة في الأوتيزم، حيث تقترح هذه النظرية أن الخلل في قدرة أطفال الأوتيزم على التقليد ومحاكاة سلوك الآخرين ما هو إلا نتيجة لخلل في نظام العصب العاكس في المخ، وبالتالي فإن العديد من المؤيدين لهذه النظرية يؤمنون بأن تلف نظام العصب العاكس هو الذي يلعب دوراً رئيسياً في تلك المشكلات التي يعاني منها أطفال الأوتيزم والتي تتمثل في مشكلاتهم الاجتماعية بوجه عام ومشكلات اللغة والكلام والتقليد والمحاكاة بوجه خاص .

وكان نتاج هذه النظرية أن أغلق الباب أمام الباحثين النفسيين للبحث في أسباب وطرق علاج تلك النواقص الاجتماعية في الأوتيزم طالما أن الأمر أصبح طبياً بحتاً، وبدأت تثار في الآونة الأخيرة مقولة مؤداها أن هناك خلل في المخ أو في نظام العصب العاكس هو الذي يؤدي إلى تلك المشكلات التي يعاني منها أطفال الأوتيزم . ولكن ينبغي هنا أن نقوم بطرح تساؤل هام وهو: هل التقليد أو محاكاة سلوك الآخرين ما هو إلا مجرد تقليد لحركاتهم وإشاراتهم ؟ وإذا كان هناك عطب أو خلل في نظام العصب العاكس فلماذا تم تخصيص التقليد والمحاكاة بالتحديد كنتاج رئيسي لهذا العطب دون ربط المشكلات الأخرى به.

تحت عنوان " التقليد أكثر من مجرد انعكاس " أوضح هيزر وآخرون Heiser et al. (٢٠٠٣) أن الذين يؤمنون بأن الخلل في نظام العصب العاكس هو السبب الرئيسي في عدم قدرة أطفال الأوتيزم على التقليد ومحاكاة سلوك الغير يرون أن عملية التقليد بوجه عام عملية محددة تتمثل في التحويل المباشر للمعلومات المرئية إلى مخرجات حركية، وتلك نظرة خاطئة غير علمية، فعملية التقليد والمحاكاة الناجحة لا تقتصر على محاكاة الحركات من جسد لآخر، بل إن التقليد يتطلب عمليات معرفية مختلفة وعديدة منها التحليل البصري ( المرئي ) وتقييم أهداف الفعل المقلد وانتقاء ما يتم تقليده ومتى يتم تقليده، وهذا يدعونا إلى التصديق بأن الأطفال يقيمون الفعل بشكل عقلاني بالنسبة لهم وهذا يجعلهم يقلدون بعض الأفعال دون الأخرى وهذا بالتأكيد ليس من وظائف العصب العاكس.

وتحت عنوان " كلا المرآة ليست مكسورة " أكدت دراسة حديثة قام بها سوثجات وهاملتون Southgate & Hamilton (٢٠٠٨) على أن الوظيفة الأساسية لنظام العصب العاكس ليست هي التقليد، فنظام العصب العاكس هو أكثر نشاطاً بالنسبة للأفعال التكميلية منه بالنسبة للأفعال التقليدية، فنظام العصب العاكس يؤدي وظيفة التنبؤ بالفعل أو فهم أهداف الفعل ولهذا فمن المنطقي أن الخلل في نظام العصب العاكس يعيق هذه الوظيفة أكثر من إعاقته للتقليد،

ووفقاً لذلك نجد أن المرضى ذوي الأمراض العصبية النفسية يظهرون تفسيراً سيئاً للفعل وكذلك تقليداً سيئاً إلا أن هناك العديد من الأدلة العلمية تؤكد أن أطفال الأوتيزم لديهم القدرة على استنباط الهدف المراد لفعل فاشل وهذا يؤكد أن نظام العصب العاكس ليس مختلاً في الأوتيزم.

مما سبق يتضح أن أطفال الأوتيزم غالباً ما يفشلون في تقليد أفعال الآخرين، وكانت وجهة النظر القديمة تقوم على أن هذا الفشل نتيجة لعطب وخلل في نظام العصب العاكس، أما الآن فقد تغيرت هذه الوجه في ظل تلك النتائج التي تؤكد أن أطفال الأوتيزم قادرون على التقليد السليم في مواقف معينة .إن أطفال الأوتيزم يمكنهم التقليد ولكنهم يميلون إلى عدم فعل ذلك، وربما يكون هذا نتيجة عدم قدرتهم على معرفة ماذا ومتى يقلدون، إن التقليد ربما يعتمد على فهم واستغلال الإشارات الاجتماعية التواصلية المنبعثة من الآخرين، فالأطفال العاديين دائماً ما يستغلون رؤيتهم للأفعال والإشارات الاجتماعية ويقلدونها نتيجة قدرتهم على الانتباه لها وتحليلها بطريقة صحيحة.

وهذا يؤكد ما نادى به هشام الخولي (٢٠٠٧) من حيث أن أطفال الأوتيزم يعانون من قصور واضح في مهارات الانتباه المترابط أكثر من الأطفال متأخري النمو والأطفال العاديين، حيث يعاني أطفال الأوتيزم من ضعف وقصور في المهارات التي تتطلب الانتباه للآخرين. إن العرض السابق لنظرية المرآة المكسورة والاتجاهات الحديثة التي تمحى تلك النظرية يعد باعث أمل في مجال الأوتيزم، فبينما كانت الرؤى تشير إلى التسليم بأن جانباً طبياً كبيراً هو السبب في الأوتيزم، بدأت الدراسات محاولة نفي ذلك أو على الأقل التقليل من حدة ذلك وهذا يعد دافعاً للباحثين غير الطبيين لاقتحام أغوار الأوتيزم محاولين الوصول لفهم وتفسير عميق لتلك المشكلات التي يعاني منها هؤلاء الأطفال .